

الزاد في سيرة أعمام

بيرون

ذلك الصبرى المتمرد الذى غنى أروع
أناشيد الحرية، ولاقى الموت فى سبيل الحرية

للأستاذ محمود الحنيف



خليلة ألبسها ملابس الرجال وادعى أنها أخ له ، وأطلق لحياة المجون
عنانها ؛ فهل كان يريد بهذا العبث أن يسخر سخرية عملية من
الحب وأحلام الحب ، أم هل كان يجرى فيه على ما ورث من آباءه
من خلال ؟ الحق أننا نستطيع أن نرد ما أمرف فيه على نفسه
من اللو إلى الأمرين مما ؛ ونستطيع كذلك أن نضيف إليهما
ولمه بالرياضة التى جعلها بعض لهوه ، وكان يريد من الرياضة أن
يكفى لجه فيضمر جسمه ، لأنه كان أميل إلى البدانة ، وكان كرهه
للبدانة شديداً ؛ وكانت أحب ضروب الرياضة إليه السباحة التى
كان يجيدها والملاكمة التى أخذ يتعلمها على أحد كبار معلمها .

ولما انتهى العام ترك بيرون الجامعة وذهب إلى سوتول حيث
كانت تقيم أمه ، فأن وقع بصرها عليه حتى نارت فى وجهه
وقذفته بما كان فى يدها ، فعول على الرحيل مسرعاً وقد كانت
له يومئذ مركبة اشتراها فركبها مع أحد أصدقائه وركب إلى جانب
السائق خادم ، له واصطحب معه كلبيه وكان يحبهما أشد الحب ،
وغاب زمناً عن أمه حتى أنفق ماله فعاد إليها على رغبه

ونقيب عن الجامعة عاماً جمع فيه شعره بإشارة من فتاة كان
قد تعرف إليها فى سوتول حين ذهب إليها أول مرة مع أمه
وكانت تحترمه وتكبره فاطمان إليها ؛ ولما تم له جمع قصائده ذهبها
إلى ناشر تحت عنوان « ساعات الكمل » وذهب إلى لندن ليشتري
بنفسه على بيع ذلك الكتيب ، وكان مما يشبع كبرياءه أن يرى
اسمه فى « قريبات » يائى الكتب ؛ وراح يترقب ما عسى أن تنشر
الصحف من نقد لشعره ، ولما عاد إلى الجامعة كان بطرب فؤاده
لما يسمعه من ذبوع شعره بين طلابها ؛ على أن هذا الشعر يومئذ
لم يكن من النوع الذى يبشر بمستقبل عظيم . وما لبث بيرون أن
سمع أن صحيفة أدنبرج حملت عليه حملة شديدة ، ولما تمته على نشر
مثل هذا العبث ، وكان بيرون فى التاسعة عشرة وقد أشار إلى سنه
فى مقدمة كتابه ، فمدت الصحيفة ذلك منه توكياً للنقد فأشارت
إلى ذلك المعنى فى حملتها عليه ذاكرة أن كثيرين غيره نشروا
قصائد وهم فى سن مثل سنه أو أصغر منها فكانت غيراً من
قصائده كثيراً . ماذا يفعل ذلك المتمرد نلقاه هذا النقد الشديد ؟
لقد نقل عليه الهم أول الأمر ، لقد كان يضيق بالحياة بعد ما كان
بينه وبين ماري ، وظن أن سيكون له فى الشعر من ذهاب الصيت

وانصرف بيرون فى كبردج عن دروسه كما كان يفعل فى هارو
وراح يقرأ ما تحب نفسه من الكتب ، وأخذ يتلى بنظم الشعر
فى شتى المناسبات ؛ ولقد اصطفى فريقاً من الصحاب فى الجامعة
كما فعل فى المدرسة ، وظل فى الجامعة حريصاً على أن تكون له
الزمامة على من هم دونه فى السن . وأحب فى الجامعة شيئاً واحداً
وذلك هو حياتها الحرة الخالية من قيود المدرسة ، وعاش فى سعة
بما أتبع له من المال ، وبسط يده لإخوانه كل البسط ، وكان
من الأمور الشائعة يومئذ لعب الورق وشرب الخمر ، حتى لقد كان
يعرف للشاب بمقدار ما يشرب من الخمر فى جلسة ، وبمبلغ حذقه
فى اللعب أكثر مما يعرف بما يحصل من درسه ؛ وكان طبيعياً
أن يجارى شاب مثل بيرون أقرانه فيما انغمسوا فيه ، وإن كان
يكره الخمر بطبعه ؛ وأقبل الشاب على حياة اللو ، لا يتقيد بمعرف
ولا يهتم بلوم ، حتى نفذ ماله ، فاستدان بضع مئات . ولما ضاق
نطاق الجامعة عن لهوه استأجر مسكناً خارج أسوارها ، واتخذ له

ما يتأسى به وما يتخذ به نفراً برفع به رأسه ويدراً به عن نفسه
بعض الخزي الذي كان يلحقه من عاهته والذي ظل ملازماً له كما
يتجلى ذلك في حديث له يومئذ مع قسيس في سوئول كان يجادلُه
ويذكره بما من به عليه خالقه من نعم منها أنه وهبه عقلاً يسمو
به على الناس، وكان جواب يرون أنه يسمو بعقله عن الناس ولكنه
ينحط برجله عنهم

ماذا يفعل ذلك المتكبر الحق ؟ لقد فكر أن يرد لتوه على هذا
النقد بقصيدة نادرة ، ولكنه عاد فأثر التهمل ليكون رده محكما
وليغمر فيه كل ما يجيش في نفسه، وأخذ ينظم وقلبه مملوء بالفيظ
والحق على ناقده وعلى شعراء عصره جميعاً

وأخلى اللورد جراي قصر نيوسند فذهب اللورد يرون ليقم
فيه وكانت يد البلى قد شوهت جمال ذلك القصر القديم ؛ على أن
الشاعر ظل على الرغم من ذلك شديد الحب له والإعجاب به ، وكان
أول ما التفت إليه عقب عودته شجرته الحبيبة فأزال بيده ما التفت
بها من الحشائش وما عاق من نخوها من متسلق المساليج ، وعاش
في عزلة عن جيرانه فلا يرد لهم مودتهم ليقطعوها ، فإنه بالناس
يرم منذ يقاعته ، على أنه لم يستطع أن يرفض دعوة وجهت إليه
من نيوسند فذهب ليرى ماري وقد تزوجت وصار لها طفلة صغيرة
وكانه لم يعتمد عليها أكثر من يوم فلقد نبض قلبه وهو إلى جوارها
بما كان ينبض به أمس ، وحاول الكلام فلم يطاوعه لسانه
إلا بمبارات منقطعة لا معنى لها ، وعاد لهفان إلى قصره يلذع
الأمسى قلبه ويتنازع الهم مشاعره فكتب لساعته قصيدة تمد من
أرواح قصائده تلمس فيها اللوعة في قوله

« وداعاً يا حبيبتي المزينة : لا بد لي من الرحيل ، وما دمت
أنت سعيدة فليس هناك ما يكربني ، أما أن أبقى إلى جوارك
فذلك مالا أطيقه إذ سرعان ما يعود قلبي طوع يدك ... »

لقد طالما ظننت أن الزمن في دورانه ، وأن ما فطرت عليه
نفسى من نثار وكبرياء ، كفيلاً أن يحمدا في قلبي تلك للشعلة
الثائرة شعلة الحب أو شعلة الطفولة ، ولكنني لم أتبين حتى جلست
إلى جانبك أن قلبي لم يزل في كل شيء هو هو ... إلا من جهة
واحدة ... هي الأمل !

غير أنني على الرغم من ذلك جلست هادئاً بين يديك ؛ نعم
إني لم أنس تلك اللحظات التي كان يذب فيها قلبي بين ضلوعي

عند لحظة من عينيك ، أما الآن فالعدة جريئة ، ولذلك التفتينا
فلم ينبض فينا عرق^(١) ... »

وعول الشاعر على مغادرة قصره الحبيب يلتبس الشفاء
في رحلة طويلة في أنحاء القارة أو إلى الشرق ، ولكنه بقي حتى
يفرغ من كتيبه الذي كان ينظمه للرد على ناقده

واحتفل الشاعر في نيوسند في مسهل عام ١٨٠٩ يلوغه
السن ، فدعا إلى القصر بعض أصدقائه حيث أقاموا ليلة ساهرة
صاخبة ، ثم ذهب ليأخذ مقعده في مجلس اللوردات فاستقبل
استقبالاً فاتراً ، وقد ذهب إليه بمفرده على خلاف التقاليد التي
كانت تقضي بأن يذهب اللورد الجديد في حاشية من أهله أو من
أصحابه ؛ ولكن اللورد يرون لم يجد من يصحبه ، وسرعان ما ضاق
بالمجلس ومن بالمجلس . وفرغ من كتيبه وقد نحا فيه منحنى الشاعر
بوب في الأسلوب وللزعة التكمية وملاءم للمهجوم العنيف على
ناقده وعلى شعراء عصره لم يستثن منهم أحداً ، وإنه ليتساءل كيف
يحل لهم النقد ما يحرمونه عليه ؟ ونشر الكتيب فصادف من
النجاح أكثر مما قدر له الشاعر الشاب ، ولقد ظهرت فيه براعته
في التهمك ولباقة في سوق الحجج ، ونجحت قوة عبارته وإشراق
معانيه ولذع سخريته ؛ واطمأن الشاعر إلى مكاتته وقد ظهر على
ناقده من أكبر نقاد العصر ، وهو بعد في الحادية والعشرين من
من عمره ، وأحس أنه شقي غليل نفسه فعاد من جديد يسرف
في لهوه ، وكان قد بات في شغل عن أكثره بما كان يملأ فؤاده
من غل . ولم ير الشاعر آخر الأمر بدا من الرحيل فقد آده عبء
ديونه ، وممل اللو بعد أن أسرف فيه على نفسه ، ولذع الهم فؤاده
لوجوده قرب ماري وماله إليها من سبيل اليوم ... على أنه قبل
أن يرحل دعا نفراً من خلانه في كبردج إلى قصره فقضوا شهراً
في اللعب والمجون ، وحسبك أنهم كانوا يديرون الراح في جمجمة
آدمية هي جمجمة قسيس أخرجت عظامه من الأرض فأس
البستاني . وحان يوم الرحيل فلم يأس الشاعر على فراق أحد غير كلبه ؛
ولم يجد حوله من يأسون على فراقه هو ، فإنه لم ير أخته منذ فترة
طويلة ، ونال من نفسه أنه لم ير في وجوه صحابه ما يشمره أنهم
يحرزون لسفره . وركب البحر وهو لا يعلم أين يذهب ولا متى يعود
وسافر معه من خلانه شاب يدعى هيموس ، فكانت لشبونة
أول أرض زلأ بها ، ومن لشبونة ذهباً إلى قادس ، ومنها إلى جبل

(١) ترجمنا هذه القصيدة بعنوان وداع في العدد ٨٥ من الرسالة

الفن من أمثال : وردنورث ، وكارديج ، وسوذي ، وتوماس مور ، وكامبل ، وشبلي وولتر سكوت ، وغيرهم . وكان معظم هؤلاء أكبر سنًا منه وأسبق في قرض الشعر

ولقد قامت شهرة بيرون شهرة كل من هؤلاء جميعًا على الرغم مما كان لاكثرهم من سمو المكانة في الشعر مثل : وردنورث ، وزميله كلردج . وليس معنى ذلك أنه بذم في ذلك المضمار ، فقد كان لكل منهم ناحية تفوق فيها ، وإنما اتفق له من اللصيت ما لم يتفق لأحدهم ؛ الأمر الذي جعل ولتر سكوت على نباهة شأنه يومئذ يترك الشعر ويبحث لمبقرته عن مجال آخر هو مجال القصص قائلًا في صراحة إنه إنما يفعل ذلك لأن بيرون قد أخذ عليه طريق الشعر ، وهو قول كان له وقته في الأندية ، وكان له كذلك أثره البعيد في تزايد شهرة الشاعر الشاب ، الذي لم يكن يومئذ يزيد على الرابعة والعشرين من عمره

على أن بعض النقاد يمزون ما أصاب بيرون من النجاح إلى عوامل أخرى تتصل بشخصه أكثر مما يمزون ذلك إلى مجال قصيدته ؛ فهو شاب في ربيع العمر وهو يتمتع بقلب من أكبر ألقاب الدولة ، وهو إلى ذلك جميل الصورة موفور الوجهة ... ولكن آخرين ينكرون على هؤلاء رأيهم هذا قائلين إنه نشر قصيدته قبل أن يعرف عنه كل ذلك اللهم إلا بين نفر قليلين من أصحابه . ويلمس غير هؤلاء وهؤلاء أسباب شهرته هذه في موضوع قصيدته لافي قوة شاعريتها ، فهي سياحة في القارة في وقت كانت تتجه فيه الأنظار إلى ما يجري فيها من حروب يبعثها نابليون في أنحائها ... ولكن القصيدة لم تكن وصفًا لتلك الحروب حتى يصح هذا الرأي

فهل كان ما أصابت القصيدة من شهرة يرجع إلى قوة شاعرية صاحبها فحسب ؟ إن الذين يقولون ذلك أيضًا بعيدون فيما نرى عن الإنصاف بمد سالفهم ، ولما كانت القصيدة أشهر حادث أدبي في حياة الشاعر وأحد العوامل الهامة في الحركة الأدبية يومئذ وجب أن ننبين حقيقة أسباب نجاحها على مثل هذه الصورة الفاتقة .

(يتبع)

الأخفيف

حكم استئنافياً بتفريم محمد موسى أحمد البقال بالسيدة بالقضية
نمرة ٢٣٨ تسعيرة سنة ١٩٣٩ استئناف ١٨١٨٠ بجملة ١٥ نوفمبر
جنهان لميمه عدسا بأزيد من التسعيرة .

طارق ؛ وكانت أسبانيا يومئذ في صراعها ضد نابليون ، وكانت الجيوش الإنجليزية تساعد أهلها على الخلاص من نيره ؛ وأعجب بيرون بشجاعة أهل أسبانيا بقدر ما أعجب بمجال طبيعتها

وركب وصديقه سفينة من جبل طارق قبلنا مالطة ، ومنها توجهوا إلى ألبانيا حيث نزلا ضيفين على علي باشا والي يانينا ، وشد ما أعجب بيرون ببسالة الألبانيين وبمظاهر الحياة الشرقية في قصر الباشا ، وكان له من ذلك مادة غزيرة سوف تظهر فيما بعد في آثاره وذهبا من ألبانيا إلى بلاد اليونان ، موطن السحر والحكمة بلاد هوميروس وأفلاطون ، وادى الأساطير الخالدة ، ووقف الشاعر أمام آثارها يقضى أرب مشاعره مما تحدث من أخبارها وما توحى من معانيها ... وتوجهوا بعد ذلك إلى القسطنطينية مدينة الشرق العظيمة ، ييظنطة الساحرة ذات المجد الثالث والجمال الطريف ، وأنس بمظاهر الحياة في عاصمة العثمانيين ...

وعاد للشاعر إلى وطنه بعد أن قضى في هذه الرحلة زهاء عامين ؛ عاد وفي جيبه قصيدة طويلة لم تكن إلا خلاصة مشاهداته في رحلته هذه ؛ وتردد الشاعر في نشرها أياما ؛ ثم دفعها إلى صديق له يسأله رأيها فيها فألح الصديق عليه أن يذيعها في الناس فأبها الجديرة بذلك أي جدارة

وفعل بيرون ما أشار به الصديق ، ولم تكذ تتداول لندن هذا الكتيب الجديد ، ويطلع أهلها على ما جاء به من وصف لهذه الرحلة ، حتى كان اسم الشاعر اللورد على كل لسان ، وفلت بها براعة وصفه وحماسة شعره وقوة عاطفته ما يفعل السحر ؛ وهكذا يتوافى للشاعر بهذا الكتيب الذي خاف من نشره أول الأمر من ذهاب اللصيت ما لم يتواف لشاعر قبله ؛ بل لقد حاز بيرون من الشهرة ما لم يحز رجل آخر في أي ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ، حتى لقد شبه يومئذ بالشهاب اللامع ، الذي يخطف بريقه الأبصار على حين غفلة ، وقال هو بصف نفسه : « لقد أفتت ذات صباح فوجدتني من ذوى الشهرة »

منذ ذلك اليوم صار بيرون شاعر عصره في إنجلترا ، فأخذ ينظم الشعر في سرعة عجيبة أدهشت الناس وحيرت النقاد ، وسمى إليه كثير من ذوى السكينة ههثونه ويننون عليه ، وأصبح يشار إليه في كل ناد ، ويدبني الوصيلة إلى مودته الشباب والكهول ، وهو يزاد بذلك شهرة ويمتلي قلبه زهواً ونفراً . ولم تكن إنجلترا يومئذ خلوا من الشعراء ، حتى تعزى شهرة بيرون إلى أنه لم يكن في الميدان غيره ؛ فقد كان في تلك البلاد عدد من فطاحل هذا